التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنـكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادى ! خـذوا معانى العظمة فى نفسها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم ... ...

— ١٥ —

واتخذ دوجلاس للأمر عدته ، لم يدع وسيلة أو يغفل عن حيلة ، أما ابراهام فلم تكن به حاجة إلى ما يحتال به من أساليب التأثير المتكلفة الخادعة ، فما هو إلا أن ينصت له الجمع حتى يبتعث اليقين ما قر فى نفسه فيحرك به لسانه فاذا هو كالنهر الحادر يفهق بما لا يفتأ يواتيه به المنبع ، ويجيش بهذا الفيض ويهدر ، ويتدفق لا يصده عن وجهه شيء ...

وكان لدوجلاس من بعد الصيت ما جعل اسمه ملء الأسماع فى طول البلاد وعرضها ؛ وكان فى رأى الأمريكيين أقدر رجال حزبه وأكثرهم فطنة وأطولهم فى السياسة باعاً وأقواهم بمصاعبها اضطلاعاً ، بل لقد كان عند الكثيرين من ذوى الرأى أعظم رجال أمريكا كفاية وأعلاهم كعباً وأعزهم مكانة ، وكان يلقب « بالمارد الصغير » أن كان له على صغر جرمه وقصر قامته قوة المارد وسلطان المارد ودهاء المارد ، وكانت له حيوية غريبة تنقطع دونها حيوية الرجال ، وتتقاصر عنها هممهم . والحق لقد كان دوجلاس يومئذ أنبه الناس شأناً وأعزهم نفراً وهو من عهد قريب لم يكن يسمع به أحد خارج الينواس

لذلك كان للناس عجباً أن يطاوله ابراهام وأن يدعوه إلى نزال . وأخذ من لم يكن يعرفه منهم هذا الفعل من جانبه على أنه ضرب من الغرور أو نوع من النفلة ، ولو أنهم عرفوا دخيلة صاحبهم الذى افتتنوا به وتبدنوا ما هجس فى نفسه من الخواطر إزاء هذا التحدى الجرىء لأيقنوا أن جبروت ماردهم وأساليبه ما كانت لتغنى عنه شيئاً من هذا المعلاق الذى درج من النباية ليقف أمامه كأنه السنديانة !

وكانت أتارا أولى المدن السبع التى اختيرت ميادين لذلك الصراع ؛ وقد جاءها الناس ليشهدوا ما لم تقع عليه من قبل أبصارهم أو تتعلق به أوهامهم ، وقد أتفق أن يكون الكلام أول الأمر لدوجلاس فيخطب الجمع ساعة ، ثم يعطى من بعده ابراهام ساعة ونصف ساعة ؛ ويختتم دوجلاس هذا الدور بعده بحديث يستغرق نصف ساعة

وكان دوجلاس فى انتقاله بين المدن فى أبينواس يتخذ مركبة فخمة يجرها ستة من كرائم الخيل ، وحوله ثلة من الفرسان يتزيد بهم من الهيبة والأبهة ؛ وكان إذا دخل مدينة من المدن يقف فى مركبته وقد تكلف أكثر ما يطيق من الصرامة فما يكاد يلمحه الناس ويقبلون عليه مصفقين مهللين حتى تنقلب صرامته وسامة فيحيي الجموع بيديه وإيماءاته وابتساماته ، ويلتفت لهذا ويهش لذاك كأنه ملك يتدلى من عليائه ليطلع على شعبه ، وإذا هو حل بقوم أو سار إليه قوم عرف كيف يوحى إليهم تبجيله والاعجاب به ، فهو بين الصلف وخفض الجناح ، وبين الاحتشام والتبذل يحيي وجوههم وكبراءهم ويغمرهم بنعمة منه وفضل

أما لنكولن فكان ينتقل بين الناس كأحدهم ؛ وكثيراً ما يكون دون بعضهم ، فإذا أخذ مكانه فى قطار أو فى مركبة عامة مزدحمة كان بين ركابها كما كان بين الناس فى نيوسالم حين كان يدير الحانوت أو حين كان يوزع البريد يتبسط لهم فى القول ويسترسل معهم فى شتى الأحاديث ، ويقص عليهم من قصصه ، وإن له فى هذا كله لمتاعاً ولذة لن يحسها إلا من كان له مثل قلبه

والتقى الرجلان فى أتاوا ؛ واحتشد الناس فى الموعد المضروب فضاق بهم مكان الاجتماع ؛ وحانت ساعة الكلام ، فوثب المارد الصغير إلى موضع مرتفع أطل منه على الناس فتمزقت بالتصفيق أكف أنصاره وتشققت بالهتاف حناجرهم ، وهو يرسل نظراته فى جنبات المكان ويوزع إيماءاته هناك ، وهنا ، حتى سكنت ريحهم فبدأ الكلام ...

وكان يومئذ فى الخامسة والأربعين ، بادى القسوة مرموق الشباب يتهلل وجهه لولا كدرة طفيفة هى مما فعلته به ابنة العنقود وسكنى المدن ولكنها كدرة كانت تنقشع حين تلتهب بالحماسة وجنتاه ؛ وكان فى موقفه بارز الصدر قوى الكتفين

تتجه نظرات الإكبار إلى رأسه الضخم فما تلبث أن تلتقي بعينيه الزرقاوين السريعتين فترتد حاسرة كأنما غشيت من ضوء وهاج ، وكانت تفتن الأنظار أناقة ملبسه ونظام هندامه ، كما كانت تسحرها لفتاته وحركاته كأنما كانت تقع الأبصار منه على ممثل قدير عرف سبيله إلى قلوب محبيه فهو يحرص ألا ينحرف قيد شعرة عما يشيع في نفوسهم السحر من مظهره ...

وتكلم دوجلاس فكان في كلامه ثبت الجنان زلق اللسان وكانت له في هذا الاجتماع خطة بالغ في إحكامها وتسديد خطاها ، ومؤداها أن يرمي لنكولن والمتشيعين له بأنهم من المتطرفين الذين يريدون حل مسألة العبيد بالقوة ، ثم يحمل على بقية رجال الحزب الجمهوري فيرميهم بالتذبذب ... وراح يخطو في سبيل ذلك خطوات ؛ فيتحمس ويعلو بصوته ويكثر من الإشارات ، ولكنه كان يسمو بعباراته أحياناً فلا ترقى إليها أفهام الكثيرين ؛ على أنه كان له من جاهه ونفوذه وهيبته في قلوب الجماهير عوض عن ذلك، فحسبهم أنهم يستمعون إلى ذلك الذي بات يتحدث باسمه كل إنسان ، حسبهم أنهم يستمعون إلى دوجلاس السياسي الأشهر ورجل الثورة العزيز الجانب ! وإن في كثير من النفوس البشرية لما يميل بها من غرائزها إلى الخضوع للسلطان والانقياد لكل ما يشير به ولو كان مما هو جدير أن يقابل بالعصيان

وجاء دور ابراهام فطلع على الناس بقامته الطويلة فهتف باسمه أنصاره وتحمسوا له ، واتجهت إليه الأنظار وإنه ليبدو كأنما أخذته من الموقف ربكة فليس له تطلع دوجلاس وتحفزه ! ونظر الناس إلى شعره الأشعث وإلى ملابسه المتهدلة وخاصة إلى سرواله الذي يقصر عن ساقيه فيكشف عن جزء منها ، وقارنوا دون أن يشعروا بين تلك الملابس وبين حلة دوجلاس الأنيقة فبدت أكثر حقارة مما هي عليه ! وكانت تستقر الألحاظ برهة على محياه وقد ازدادت مسحة الهم فيه وضوحا ، وبدا عليه ما يشبه المسكنة والانكسار.. ولكن الناس على الرغم من ذلك يرتاحون إلى مظهر ذلك المحيا ويشعرون نحوه بالحب !

ويبدأ الخطيب في صوت أجش تتخلله حشرجة ثقيلة ؛ ثم ما هي إلا برهة حتى تنطلق تمسه على سجيتها ، فاذا ذلك المحيا يتهلل ويشرق وتشكل أساريره بما يهجس في خاطره ، وإذا تلك العينان الواسعتان المتسائلتان تنفثان بسحرهما إلى أعماق القلوب ، وإذا الرجل يبدو في هيئة يتقاصر عن وصفها لفظ الجمال . وتتفتح مسالك صوته فينطلق رائقاً له رنين يتشكل حسبما يعبر عنه من المعاني ، وكان يعلو صوته إذا تحمس فيدوي في أرجاء المكان

وينساب السيل لا يصده عن وجهه شيء ولا تمشي في صفائه كدرة على تدفقه وجيشانه ! والناس مفتونون وإن هم لم يفطنوا على وجه التحديد إلى سر فتنتهم ، فهم مأخوذون بما يسمعون عن أن يفكروا أو يحللوا ؛ وإنهم لفي سكرة أشبه بما يجدون أنفسهم فيه عند إصغائهم إلى لحن من تلك الألحان التي تسحر الأنفس وتملك الألباب

تدافعت إلى ذهنه الألفاظ وتزاحمت عليه المعاني وقد أسفرت عن وجوهها ومشت إلى غايتها في غير تحرج أو التواء ؛ ولقد برزت في ذلك اليوم مواهبه على أتمها فكان له ما شاء من سهولة اللفظ مع بلاغته ودقة المنطق مع سلامته ؛ هذا إلى يقين ينفث في قوله الحرارة ؛ وتمكن يذيع فيه الروعة ؛ وأمثلة يسوقها من الحياة العادية فتستقر في قلوب سامعيه ومعظمهم من عامة الناس ومن وراء ذلك العبقرية التي تستعصي على التحليل وتسمو على التأويل ...

ونزل لنكولن وله في قلوب السامعين من أنصاره وخصومه مكانة غير ما كان له قبل من مكانته ، فلقد استطاع أن يقنعهم ، كما استطاع أن يشعرهم بما هو أقوى من الاقتناع وأبعد أثراً ألا وهو الاعجاب ؛ وإنهم ليهمسون بعضهم إلى بعض قائلين : ليت لسادتنا وكبرائنا قلوبا مثل قلب ذلك الرجل ... مثل قلب أيب الأمين ...

وتكلم دوجلاس بعد ذلك مسافة نصف ساعة أعلن بعدها أن الاجتماع الثاني سوف يكون في فريبورت

ولقد ارتكب دوجلاس من الخطأ في هذا الاجتماع الأول ما عد عليه أنه أفحش أخطائه في ذلك الجدال ؛ وذلك أنه أبرز مكتوباً موقعاً عليه باسم لنكولن يفهم منه أن إبراهام من زعماء المتطرفين ؛ ولكن سرعان ما أقام إبراهام في دوره الدليل على أنه

زائف وأنه مما جاء فيـه براء . وكانت لطمة قوية استخذى لهـا دوجلاس فى سامى منزلته ، وفقد بعدها ثقة الـكثيرين ...

وحل موعد الاجتماع الثانى فتسابق الناس إليه أفواجاً وقد اشتهر أمر ذلك الصراع إذ لم تبق صحيفة إلا وقد أسهبت فى الحديث عنه ؛ وفى هـذا الاجتماع طعن لنكولن خصمه تلك الطعنة التى سلفت الاشارة إليها ؛ فلقد أعد له سؤالا يلقيه عليه : أ إذا أرادت ولاية أن تلغي نظام العبيد فيها فهل هى مستطيعة أن تفعل ذلك دون أى حرج ؟ ولقد أنـكر عليه أنصاره هذا السؤال إذ لم يفهموا الغرض الذى يرمى إليه منه ، وهو يعلم أن دوجلاس سيجيبه: بلى تستطيع الولاية ذلك . فقال لهم ولـكنه بذلك يفقد عطف أنصار مبدأ التمسك بالعبيد من أهل الجنوب فلا يمنحونه أصواتهم إذا هو تطلع للرياسة ؛ ولن يضير لنكولن أن يظفر دوجلاس اليوم بمقعد في مجلس الشيوخ

ووجه لنكولن السؤال إلى دوجلاس فأجاب بقوله « نعم تستطيع الولاية أن تفعل ذلك فى غير حرج » ؛ وفرح لنكولن بتلك الاجابة التى يعلم أنها ستنفر أهل الجنوب منه . ولقد أيدت الأيام رأيه وبرهنت على بعد نظره. ومما قاله لنكولن فى ذلك « إن دوجلاس ليتبعه عدد كبير من العميان ، وإنى أريد أن أجعل بعض هؤلاء يبصرون »

وفى الاجتماعين الثالث والرابع لم يأت كلاهما بشىء جديد ؛ وإنما اجتهد لنكولن أن يدفع عن نفسه ما رماه به خصمه من الاتهامات ؛ وخرج لنكولن من هذين الاجتماعين وقد أضاف إلى أنصاره أنصاراً جديدين ...

وفى الخامس من هاتيك الاجتماعات اتخـذ لنكولن خطة الهجوم ، بعد أن أخذ ينشر خصمه ويطويه في الاجتماعين الماضيين حتى دوّخه ، وكان هجومه تلك المرة شديداً ، ضاق به دوجلاس وانخلع عنه مكره ؛ عاب عليه إبراهام أنه لا يحفـل بالاعتبار الخلقى من مسألة العبيد، مع أن هذا الاعتبار بعد الخروج على اتفاق مسورى ، هو السبيل الوحيد الذى يعوّلُ عليه فى منع انتشار العبيد ؛ وعلى ذلك يكون دوجلاس داعية إلى أن تصبح مسألة العبيد مسألة قومية عامة لا تحرج منها ولا تأثم فيها ...

وأحس دوجلاس مهارة الرمية وقوة الاصابة فراح يرد على رمية برمية، وعاد فاتهم لنكولن والحزب الجمهورى أنهم من دعاة الثورة وأنهم يدفعون البلاد إلى الدمار ...

ولـكن لنكولن جعل الاجتماع السادس لتحديد مذهب الحزب الجمهورى فقال فى جلاء : إن الجمهوريين هم أولئك الذين يعتبرون نظام العبيد خطأ من النواحى الخلقية والاجتماعية والسياسية ؛ ولـكنهم يتمسكون بدستور الاتحاد ويسيرون فى تحقيق أغراضهم على نهجه ؛ أما الذين لا يرون عيباً فى نظام العبيد فهم الديموقراطيون ؛ وهم ليسوا من الجمهوريين فى شىء ... لذلك ليس من الجمهوريين من لا يعبأون بالدستور فى موقفهم من نظام العبيد مهما بلغ من مقتهم لذلك النظام ...

وحار دوجلاس ماذا يفعل أمام تلك القوة وأمام ذلك الوضوح الذى لا يدع مجالا لمستريب فأخذ يداجى ويعبث وقد تغلب بعد ما سبق أن استأسد

وضيق لنكولن عليه الخناق فطلب إليـه أن يجيب على هذا السؤال البسيط فى غير مداجاة « أيعتبر نظام العبيد صواباً أم خطأ » ؟ وازدادت حيرة المارد الصغير وأحس أنه على جبروته يتلوى فى قبضة ذلك العملاق وكأنه أمامه جذع من تلك الجذوع التى ما كانت تقوى على فأسه مهما بلغ من متانتها يوم كان يضرب بفأسه فى الغابة قبل أن يعرف كيف يضرب بقلمه أو بلسانه

وعجب الناس لهـذا الرجل الذى لا يرى نظيره فى الرجال ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون: ماذا دهى المارد الصغير ؟ وكيف تسنى لابن سبر تجفيلد المتواضع الذى لم يعرف سلطاناً ولا جاهاً أن يأخذ الطريق هكذا على ابن وشنجطون الجبار المدل بماله ومنعته ونفوذه ؟

ولكن هاجساً يهجس فى ضمائرهم أن للحق سلطاناً دونه كل سلطان، وعزة يستخذى أمامها كل اعتزاز، ومنعة ترتدعها كل مطاولة ؛ وأن الباطل مهما تنمر واستعدى على الحق من أساليب بهتانه وألاعيب مكره ، لا يكون منه إلا كما يكون الليل من وجه الصباح ...

وأدرك الناس أن خير خادم للناس من يدرج من بينهم فيحس